

نظام الطبقات

١ - الطبقات بشكل عام:

خلق الله آدم عليه السلام ومنه حواء ورزقا بنين وبنات وزوجهم لبعض، ولكن رأى قابيل أنه هو الأحق ولم يرضَ بما قسمه ربه، وحسد أخاه هابيل فقال لأقتلنك، لأن الله تقبل قربانك ورد قرباني، وتريد أن تنكح أختي الحسنة وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس بأنك خير مني، ويفخر ولدك على ولدي^(١).

ظهرت الطبقات بعد إدريس عليه السلام ونقلاً عن علماء الفرس، قيل أن جم بن بونجهان ملك خمسين سنة للأقاليم السبعة كلها وسخر له الإنس والجن ووضع على رأسه التاج وصنف (الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة فقهاء، وطبقة كتاباً وصناعاً وحراثين، واتخذ طبقة منهم خدماً، وأمر كل طبقة من تلك الطبقات بلزوم العمل الذي ألزمهم إياه)^(٢).

نعرف أن العرب زمن الجاهلية كانوا قبائل وعشائر ولكل منها أمير أو شيخ له أتباعه ثم من يقومون بالخدمة، وكانوا يملكون العبيد. وقبل وصول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة كانت يثرب تنوي أن تعلن عن ملك لها. وحال دون ذلك وصول الرسول الأمين وتعليمات القرآن الكريم الذي يدعو إلى مساواة الناس والتفضيل يكون بالتقوى فقط.

ظهرت الطبقات ولم تلغ بتاتاً حيث تجد في العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى والي مصر الأشتر النخعي أكد وجود طبقات متميزة. كما جاء في نهج البلاغة، (واعلم أن الرعية لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها عن بعض، فمنها: جنود الله. ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها: قضاة العدل ومنها: أعمال الإنصاف والرفق. ومنها: أهل الجزية والخراج، ومنها أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار، وأهل الصناعات ومنها:

^١ - تفسير البشار ونوهر البصائر ج ١ ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

^٢ - قصص الأنبياء ص ٨ و ٨٢.

الطبقة السفلى، ومن ذوي الحاجة المسكينة، فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن.. ثم لا قوة للجنود إلا من يخرج الله لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب.. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات^(١).

استمر حال الطبقات حتى عصر السلاطين موضوع بحث هذا الكتاب، فقد جاء عنهم (طبقات منها الفلاحون والعمال والتجار والصناع والموظفون، ثم طبقة الأغنياء والوجهاء، ثم طبقة المماليك وكان لهم النفوذ والهيمنة على مصائر البلاد)^(٢) عرف نظام الطبقات عند الأوروبيين أيضاً، فكان منهم الملوك والأمراء والنبلاء وعامة الشعب فلاحين وصناع، والجدير بالذكر أن هذه الطبقات مع اختلاف التسميات هي تقريباً نفس ما جاء في قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه فعند الأوروبيين الملوك والأمراء كانوا الحكام، والنبلاء مثل المحافظين لكل ولاية نبيل. أما طبقة عامة الشعب فهم الزراع والصناع أما المختص للدفاع فهم الأمراء والنبلاء فقط فعامة الشعب لا تقاتل بل تعمل وتنتج فقط ومن يدافع عنهم وعن الوطن هم الأمراء والنبلاء والفرسان حتى الملوك كانت تخوض المعارك بل تقودها بنفسها.

٢ - طبقات الشراكسة:

لا بد من البداية من ذكر نظام الطبقات عند الشراكسة في بلادهم القفقاس، وسيوضح السبب فيما بعد عند دراسة سلاطين مصر والشام حيث تجد أن أغلبهم من الشراكسة كما سيتم ذكر سبب قدومهم في حينه.

قبل ذكر تفاصيل نظام الطبقات لدى الشراكسة لا بد من بيان أن نظام الطبقات لم يكن لدى كل قبائل الشراكسة بل أن ذلك النظام انتقل إليهم من الآخرين، وأقصد الروس الذين وصلهم من أوروبا.

كانت دولة الروس عبارة عن ما عرف بإمارة موسكو، بعد أن استقر وضعها بدأت رغبتها في التوسع والوصول إلى المياه الدافئة، وكانت بلاد الشراكسة سداً

١ - مجلة العربي العدد ٣٦٧ حزيران ١٩٨٩ ص ٢٥ - ٢٦.

٢ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص ١٩.

منيعاً أمامهم لمدة طويلة، وكان لابد من التقرب إليهم لخرق هذا الجدار، فتقربوا للقبرطاي الذين يسكنون في الوسط بين بحري قزوين والأسود ليكون لهم منفذ من الشمال إلى الجنوب أي إلى جورجيا وأرمينيا.

بعد ذلك عرف القبرطاي نظام الطبقات، وكذلك البجدوغ وهم من شراكسة الغرب. لاتصالهم الحدودي، كما عرف آخرون أيضاً نظام الطبقات، لكن كان يختلف عن نظام القبرطاي.

قبل سرد نظام الطبقات لدى الشراكسة لابد من توضيح مصطلح (بشيل - بشيتل - بشيل) والذي قصد به وترجم بمعنى عبد خطأ، فقد ترجمه بعض الروس وغيرهم من الأجانب والرحالة والمسافرين، كما ادعى لاينسكي ١٩٦٣ بأن الشركس أخذوه في الأصل عن التتار^(١).

المعنى الحقيقي لكلمة (بشيتل) هي (رجل الأمير) أي تابعه، وليس رقيقاً، كما فهم الناس إذ لم يتواجد عبيد عند الشراكسة في تاريخهم، وقد أسيء فهمه بعيداً عن الحقيقة^(٢).

يوجد فرق بين العبد وغيره، فالعبد مستملك لا يقدر أن يملك بل كل ما يملكه - إن وجد - فهو لسيده، ولا تجوز دفع الزكاة للعبد كما ذكرنا سابقاً، وكذلك العبد لا يقاتل بإرادته هو، بينما طبقة (بشيتل) كانوا يحملون السلاح ويشكلون جزءاً من القوات المحاربة^(٣)، كما يملكون ملكية خاصة بهم فيتملكون المواشي مثلاً، ولهم حق مقاضاة سيدهم وجعله يمثل أمام القاضي، والعلاقة القائمة كانت بأن على (البشيتل) أن يقدم أعطيات معينة إلى النبيل، أو العمل عنده مقابل حمايته والدفاع عنه ويتحمل كافة النفقات^(٤). هذا كان عند القبرطاي - أما فئة الأتباع المذكورة لدى القبائل الشركسية الأخرى (في كثير من الأحيان أفضل من شروط

١ - أساطير النارتين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٦.

٢ - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج ١ ص ٥٧.

٣ - أساطير النارتين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٦.

٤ - أساطير النارتين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٦ - ٦٧.

وحياة الأحرار، وبالنسبة للعادات المتبعة في الولادة والزواج والدفن وغيرها من أمور الحياة اليومية السارية بين الأتباع فقد كانت نفس عادات الأمراء^(١).

إذا سردنا نظام الطبقات عند الشراكسة بالتفصيل فنجدها كما ذكرها دولبيز دومونتارو خمس طبقات هي الأمراء - النبلاء - الأحرار - الخدم - الأتباع^(٢).

لا توجد فئة للعبيد كما ترى، بينما الكاتبة أي ساندريث قسمت الشركس إلى خمس فئات أيضاً هي الأمراء - النبلاء - الأحرار - العبيد - التابعين - والأتباع^(٣)، ويتضح أن كلمة العبيد أدخلت بالتقسيم بشكل غير صحيح، إذ كيف تكون فئة العبيد، إذا كانت موجودة أصلاً في مرتبة أعلى من الأتباع، نفس الأمر يقال لتقسيم جاباني عن المجتمع الشركسي الذي قسمه إلى أربع فئات هي^(٤): الأحرار (البشي) - النبلاء (ورق) - الفلاحون الأحرار (تليقوتل) - العبيد (بشيتل) ومعهم أيضاً الخدم (ونه أوت)^(٥). وكما ذكرنا كلمة العبد غير صحيحة وهي تعني رجل الأمير.

إذا اعتبرنا وفرضنا كما جاء في التقسيم أن كلمة (بشيتل) أي (رجل الأمير) أفضل من (ونه أوت) وتعني (الخدم - أشخاص الحوش - الذين ينتظرون أمام الباب) وباعتبار أن (ونه أوت) الخدم ليسوا عبيداً وهم أدنى درجة من (بشيتل) رجل الأمير فيعني أن كليهما ليسا من طبقة العبيد كما جاء في بعض التراجم.

إذا كانت طبقات الشراكسة هي أمير القوم رئيسهم ثم النبلاء ويقسمون فئتين درجة أولى وثانية. ثم فيما بعد جعل الأمير جان خواتوقه باسلان من القبرطاي فئة النبلاء هذه خمسة درجات والطبقة الثالثة هي الجمهور وقسمها أيضاً الأمير جان إلى أربع فئات، والطبقة الرابعة منها هي رجال الأمير.

١ - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٧.

٢ - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٣.

٣ - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٥.

٤ - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٥.

٥ - مصر والشراكسة ص ١٤.

ومن الواضح أن هذه الفئات وضعت لأسباب مختلفة وتعديل الظروف أو الأهواء ولمجرد التمييز أو كمناصب خاصة لطبقة النبلاء فتعطى أسماء الفئات حسب ما يقدمه النبلاء من بطولات وشجاعة.

يتضح ما أعنيه إذا عدنا لتقسيم الأمير جان خواتوقه بإسلاف الذي قسم النبلاء إلى خمس درجات وهي (تلاقوه تلش) وتكتب (لقوه لاش) وتعني الشهير المعروف، وتأتي بمعنى الحائز على أصناف الشهامة والشجاعة، ثم درجة (يظنونوغوه) وتكتب (ديظنونقه - ديجونوقه) وتعني ابن الفضة، وتطلق على أولاد الأمراء من الطبقة الثانية (انتبه إلى كلمة أولاد الأمراء فهم نبلاء فلا يكون الأمير بالوراثة والنسب)، ثم درجة (قودز) وتكتب (كوه دزس) وتطلق على أعيان النبلاء الأجانب الذين تشركسوا واستوطنوا مع الشراكسة، وتعني الكلمة ركاب العربات، فكأن الشراكسة لا يعترفون لهؤلاء الدخلاء بالفروسية. ثم درجة (بشيش ورق - ورق صاوه له غوسه) وتكتب (ورق شاوه تلي غوسه) ومعناها الرفيق الأصل الشجاع المرافق للنبلاء.

أما فئة الشعب فيقسمها الأمير جان إلى أربع درجات هي: (بشي قان)، وتكتب (بشي كاو) وتعني رجل الأمير أو تابع الأمير ثم درجة (أوك تلاقوه) وقد تكتب (أوجو - لاكوصاو) تعني فتیان القبيلة. ثم درجة (الخوقول) وقد تكتب من قبل البعض، (فقول) تعني جمهور الشعب (ونه أوت) وتعني كما ذكرنا سابقاً خدم البيت. والجدير أن هذا النظام طبق لأول مرة لدى القبرطاي^(١).

لوعدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا في رواية الآستيين نقلاً عن الجورجيين (الكرج - المنغوليين) بأن الشراكسة فئة واحدة ولهم أمير مميز، وهكذا كانوا حتى وصول القبرطاي من القرم^(٢). والجدير بالذكر أن الجورجيين جيران للشراكسة من الجنوب.

١ - تاريخ القوقاز ص ١٧٥ - ١٧٧ وموجز تاريخ الجركس ص ١١٨ والوطن في أدب الشراكسة ص ٩٥ - ٦٢ وعشائر الشام ج ١ - ٢ ص ٦.

٢ - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج ١ ص ١٠.

بعد الاتصال بين الشركس والروس ظهرت عدوى الطبقات، ثم حاولوا تطبيق النظام الإقطاعي على المجتمع الشركسي بجعله فئتين فئة الأمراء ومعهم النبلاء والفئة الأخرى الفلاحون التي تغيرت اللفظة إليها بدل كلمة الشعب والتي تضم لدى الإقطاعيين الأحرار وأتباع الأمراء^(١)، مع العلم أن النظام الإقطاعي لم يمارس لدى الشركسة بالشكل المعروف كنظام ظهر سابقاً.

يؤكد شورا بيكمورزين بوغموت هذا التقسيم إلى نبلاء وفلاحين ويقسم النبلاء إلى خمسة أقسام والفلاحين إلى تابعي الأمير والفلاحين العاملون ورجال الحوش والخدم^(٢).

إذا فصلنا أكثر بين القبائل التي تعرف بالشركس بشكل عام^(٣)، نجد أن الشيشان لم يكن لهم إقطاعيات ولا عبيد، وكلهم كانوا متساوين وديمقراطيين^(٤).

تجد الأبخاز ثبّعوا مع الجورجيين للإمبراطورية البيزنطية خلال حكم جوستيان، وفرض النظام الإقطاعي بطبقاته المصطنعة المختلفة عليهم، فكان لدى الأبخاز الطبقات التالية: أمير أبخازيا - الأمراء والتابعون - النبلاء - طبقة بين النبلاء والفلاحين كالفرسان - وفلاحون أحرار - فلاحون تابعون - العبيد - مع التأكيد أن لكل شخص ذكر أو أنثى حق حمل السلاح واستخدامه. وكان حمل السلاح أمراً يميز الحر من العبد أي من يحمل السلاح لا يصبح عبداً.

النظام الإقطاعي في أبخازيا كان هشاً ضعيفاً وأغلب الفلاحين والأمراء كانت بينهم رابطة قريى بالإضافة إلى المساواة بالسلوك، والعادات والتقاليد والامتيازات والقضاء، فيمكن لأي فلاح مقاضاة الأمير^(٥).

١ - إبادة الشركسة ص ١٠.

٢ - أساطير التاريخ والتاريخ الحديث للشركسة ص ٥٤.

٣ - عنائير الشام ج ١ - ٢ ص ٦٨٥.

٤ - غير دروب الجبال ص ١٤٤.

٥ - الأبخاز الشركسة أزل وأبد ص ٧٤ - ٧٥ - ٧٨.

لم أعتد على المصادر الشركسية فقط لتوضيح الطبقات الشركسية بل على مصادر روسية وأوروبية وغيرها حيث تجد اختلافاً كبيراً في كتاباتهم حول الطبقة الدنيا، وللمطالع لها يتضح بأنها لم تكن طبقة عبيد مطلقاً. فمثلاً يقول ن.ج، دانييلفيتسكي عام ١٨٤٧ أي خلال الحرب بين قياصرة الروس والشراكسة والتي استمرت أكثر من مائة عام (وقبل إلغاء الرق وطبقة العبيد في روسيا الذي تم عام ١٨٦١م) فيقسم القبرطاي إلى خمس فئات كما يلي: (الأمراء - أصحاب السلطة الروحية - النبلاء - الفلاحون - غير الأحرار الأسرى)^(١).

يجب أن نذكر أيضاً بأن الأبراخ الشراكسة لم يكن عندهم طبقات مثل القبرطاي ولم تكن الإمارة بالوراثة، وكان أتباع الأمير المنتخب أو المعين متساوين مع أي شخص أو سيد آخر فيما يتعلق بالعمل، وكانت لهم الممتلكات الخاصة والمنقولة ولهم سكن خاص، يمكنهم إصلاح الأراضي واستغلالها^(٢)، وبشكل عام عند شراكسة الغرب - أي الساكنون في بلادهم من جهة الغرب - كانت الأمور فيها تتم ديمقراطياً (كما يحدث لوليه عن مناطق الفاتخاج والشابسوغ والأبراخ بأنها أقاليم ديمقراطية بسبب الانتخابات للحكام وعدم وجود أمراء وحتى في ظل الأمراء في بقية المناطق أو القبائل - القبرطاي - البجدوغ... الخ، فقد كان تمثيل الشعب موجوداً من قبل المندوبين في المؤتمرات الشعبية الكبيرة، التي تحسم المشاكل الكبيرة، أو في القضاء في الشؤون اليومية فكانت هناك مجالس قضاء، وكان الحكم يصدر من قبل مجموعة قضاة منتخبين)^(٣).

حول البجدوغ نذكر الحرب المشهورة المسماة حرب بزيقوه والتي كانت عبارة عن ثورة الشعب ضد الأمراء^(٤)، ومما يجدر ذكره أن قبيلة البجدوغ قتلت أمراءها بعد رفضهم النصيحة، وبعد تكرار الدعوة إليهم بأن يكون الحكم فيما بينهم

١ - أساطير التاريخ والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٤.

٢ - أساطير التاريخ والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٨.

٣ - نضال الشعب الشيبثاني من أجل الاستقلال ص ٧٣ ومجلة الشرق الأوسط العدد ٥٨٦٣ تاريخ ١٧/٢/١٩٤٩.

٤ - حرب بزيقوه ج ١ و ج ٢.

حكم الأخوة والعدالة والشرعية فلم يخضعوا هتم قتل أمرائهم في قرية تونجة قاي عام ١٢٧٥هـ^(١).

تجد هناك ألقاباً تطلق، لكن هذه الألقاب المأخوذة أو المعطاة لأفراد معينين في فترة ما قد تستمر، ولكن ذلك لا يعني كونها ناتجة عن نظام الطبقات دوماً فبعض الشراكسة مثل قبائل البسلني والجمكوري والبجدوغ والأبازة لهم اهتمامات بالألقاب ويحافظون عليها ويحترمونونها بينما تجد قبائل شركسية أخرى مثل الأبخاخ والشابسوغ والناخوج والويخ قد انتهوا منها نهائياً بعد النهضة القومية التي حصلت في بلادهم، ولم يكتفوا بهذا القدر بل أخرجوا الأمراء وأتباعهم^(٢).

تجد أن الطبقات لدى الشراكسة والتي على الأغلب استعيرت أو فرضت من الآخرين عليهم ولا يعني أن يكون الأمير أو النبيل ذا سلطة بلا منازع أو ملكاً مطلقاً فكما ذكرنا كان للإنسان العادي حتى الأتباع لهم حق محاكمة الأمير وهذا من ضمن عاداتهم وصفاتهم على مرور الزمن. حتى في زمن السلاطين في بلاد مصر والشام مثل السلطان الشركسي الأشرف قايتباي والذي حكم أكثر من تسع وعشرين سنة كما يذكر في التاريخ، وكان له سلطة واسعة ومع ذلك لا يتقيد بتقاليد الملوك، وعيب عليه مرة كيف ينزل إلى الأمير يشبك وهو تابع له وتحت سلطته في الوظائف^(٣) مرتين، بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة^(٤)، حتى بعد أن هجر أغلب الشراكسة عن بلادهم وشتتوا في أنحاء المعمورة حيث تجدهم حالياً متواجدين في أكثر من خمسين دولة في العالم مع ذلك تجدهم في البلاد التي هجروا إليها محافظين على عاداتهم وتقاليدهم فقد قيل عنهم (إن هذه الشعوب تعتبر أفرادها جميعاً متساوين في القيمة الاجتماعية (مجتمع الطبقة الواحدة) بغض النظر عن المعايير المادية أو الوظيفية أو الوراثية، مما هو متعارف عليه في المجتمعات اليوم. وقد بقي الشراكسة على عاداتهم حتى في المهجر، كما عاشت قبائلهم بدون

^١ - ميزوا باشا وصفي كتاب وثائقي ص ١٥٧.

^٢ - تاريخ الفوقاز ص ١٧٨.

^٣ - الوظائف: الخيمة الكبيرة الخاصة بالسلاطين والأمراء.

^٤ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ٥٢.

سلطات تنفيذية، وإنما يتقيدون بعباداتهم وتقاليدهم بدافع ذاتي ناجم عن شعورهم بالمسؤولية فطروا ما عليه ويشعرون به كل فرد منهم، هم لذلك لا يأترون إلا بالمجالس^(١)، خاصة مجالس كبار السن الذي يمثل في نظرهم السلطة الوحيدة التي يعتبرون قراراتها واجبة التنفيذ ولا يتأخر أحد بتنفيذها تلقائياً وقد قادت الحرب الروسية الشركسية مجالس من هذا النوع^(٢).

خلاصة القول إن عبارة (طبقات الشركس) تسمية غير دقيقة ولا صحيحة إن لم تكن هناك فروق كما ذكرنا بين جل الأشخاص، وكان يمكن الانتقال من طبقة إلى أخرى فمثلاً من طبقة الشعب إذ أبدع شخص في معركة قد ينتقل إلى فئة النبلاء مثلما كان يحدث في أوروبا فيعطى رتبة فارس عندهم. وعند الشركس كان يفرض على الأمراء ممارسة نشاطات محددة مثل القتال والفروسية وحماية الوطن والمواطن وكان أيضاً لا يسمح لهم بمزاولة نشاطات من عامة الشعب مثل الفلاحة^(٣)، أي توزيع نظام الطبقات عندهم ليست ميزة خاصة بالأفراد بل هي توزيع المهام والعمل أي توزيع الأعمال على الشعب.

٣ - دهان الشراكسة:

نجد في سرد تاريخي مختصر للأقوام التي هاجمت القفقاس في القرن الرابع قبل الميلاد الغوت الذين هاجموا بلاد القفقاس وحاربوا الأنت وهم قدماء الشراكسة، ولكن أشد الهجمات كانت من خان الأوار المغولية (بابان - باقان) عام ٥٦٠ ق.م، وقام بتخريب البلاد بسبب عدم تمكنه من غريمه وأميرهم (لاورتياس) فنجأ إلى القسوة والعنف وتدمير البلاد بوحشية.

بعد سيطرة الأحرار على الروس تقدموا إلى منطقة القبرطاي وطلب باقان من الأمير الشركسي لاوريستان بالاستسلام لكن الأمير رد عليه بالتهديد والاحتقار.

^١ - محاضرة بعنوان العرف والأساطير الشركسية للمؤلف ألفت في ١٩٩٩/٥/٢٠ ومن هذه المجالس المجلس الشعبي ومجالس الحرب ومجالس الأمهات.

^٢ - الشركس في فجر التاريخ ص ٩٢ - ٩٣.

^٣ - أساطير التاريخ والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٤ - ٥٥.

ومما جاء في رده: سنحاربكم ونقاومكم حتى لا يبقى من الشراكسة شخص واحد وبيده سيف، كما أرسل الأمير إلى بنالقوقه الشرکسي أمير منطقة (أنان - وطه مز - تسه مز) وللأسف قبل وصوله كان الأوار هاجموا لاوريستان الذي قتل في المعركة وتابع الأحرار مسيرهم والتقوا بالأمير بنالقوقه في بادئ الأمر وانتصر الأوار، ولكن الأمير بنالقوقه لم شمل جيشه مع القوات التي كانت مع لاوريستان وقاموا بهجوم معاكس انتصروا فيها على الأوار الذين انسحبوا مغلوبين إلى الشمال وتخلصت بلاد الشراكسة من ويلاتهم وهمجيتهم.

بعد ذلك جاء (الوراق) وهم من الفايكنغ ومن الفرع الشرقي لشعب النورمان وهي قبيلة غازية شمالية جاءت من بلاد الاسكندينية بقيادة زعيمهم (رويك) وهؤلاء الوراق غزوا روسيا ثم اتجهوا جنوباً، وكانوا جبابرة قيل إن البطل الشرکسي سوسروقه الأسطوري حاربهم، وبعد فترة غزو الوراق ظهرت طبقة النبلاء وسميت مع الزمن باسم (وراق) واستمرت هذه الفئة الحاكمة من منتصف القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر حتى جاء جنكيز خان إلى روسيا واحتلها وقلب الأوضاع رأساً على عقب^(١).

جاء غزو تيمورلنك عام ١٣٨٨م، وهو عام شؤم للجورجيين (الكرج) حيث غزاهم، كما حارب الخان (توقتاس) عظيم جيش القبيلة الذهبية، وفي غياب قائدها عنهم احتل بلادهم في شمال قزوین ودخل عاصمتهم بلدة ساراي على مصب نهر الفولغا، ثم اتجه إلى بلاد كرجستان عن طريق مضيق داريال^(٢).

وفي العهد القريب كانت الحروب الروسية القيصرية ضد الشراكسة، والتي دامت أكثر من مائة عام، لقد جند الروس كافة إمكانياتهم للقضاء على الشرکس بالحرق والتدمير والتهجير وارتكاب أبشع الجرائم ومما يذكره مؤرخوهم قبل غيرهم عن تلك الحروب والتي كانت حرب بقاء بالنسبة للشرکس - فكان الأولاد وأمهاتهم يهاجمون الجنود الروس بأنفسهم مع الرجال عند نشوب

١ - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج ١ ص ٤١-٥٣-٥٦ وموسوعة تاريخ الفففسا والجركس ص ٢٣٥-٢٣٦.

٢ - النيشان حرب إبادة وحريمة عصر ص ٢٠ - ٢٢.

المعارك من أجل شرف الوطن وفي حال احتدام المعارك وعند رجحان كفة الأعداء كانت بعض النساء تقتل أبناءها كي لا يقعن في يد الأعداء ثم تقاومن حتى الاستشهاد وبعض الرجال كانوا يقتلون نساءهم كي لا يقعن في يد الأعداء وقد تلجأ إحداهن إلى قذف نفسها في هوة أو واد سحيق أو في تيارات الأنهار الجبلية المتدفقة الحارقة^(١) خشية الأسر.

كانت الحرب قاسية جداً على الناس وعلى الحيوانات التي كانت تنهب وتقتل، أما الأشجار والمزروعات فكانت تحرق والبيوت تدمر وتمحى عن سطح الأرض. وتجد في كل المصادر بأن الشر كس دافعوا عن الوطن والشرف وكان مبدؤهم النصر أو الاستشهاد فكان المحاربون لا يستسلمون إذا غلبوا ويفضلون الموت على الوقوع في الأسر^(٢).

نعود إلى موضوع الكتاب ألا وهو عصر السلاطين الذين أغلبهم من أحفاد أولئك الناس، لذلك تجد هدفهم القضاء على الأعداء وهم لا يستسلمون، بينما تجد السكان الأصليين تراخوا عن ذلك الموضوع لانشغالهم بزراعتهم وصناعتهم وتجارتهم، في حين أن هؤلاء الوافدين المتشربين للإسلام أصبحوا فئة محاربة منفصلة عن بقية المجتمع نتيجة العمل العسكري الذي اختصوا به من جهة كونهم مختلفين عنهم أساساً في نواحي كثيرة مثل العادات واللغة والأعراف والتمييز وإيمانهم العميق بقضيتهم، وفي حالة السلم، أو في حال إعفاء أحدهم من مهنته العسكرية كان من السهل ملاحظة المكانة المرموقة له في المجتمع بمجال العلم والثقافة^(٣).

^١ - نضال الشعب الشيباني من أجل الاستقلال ص ٤٣ - ٣٤٧ - ٣٤٩ الشيباني حرب إبادة وجرمة عصر ص ٢١ - ٢٢ - ٢٦ ودروب الهجرة ص ٧٦ والشر كس في فجر التاريخ ص ١٢ واحتلال الروس للقفقاس ص ١٦٢.

^٢ - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج ١ ص ٥٦ وشامل في القفقاس وفي روسية ص ١٦.

^٣ - مدن المنام في العصر المملوكي ص ١٧٦ - ١٧٧.

٤ - اللاجئون لبلاد الشركس؛

في الحروب التي خاضها الشركاسة مع أعدائهم لم يذكر بأنهم أسرو أو استرقوا أحداً، والذين بقوا من الأعداء في بلادهم أو الفارين من أمكنة أخرى أو الوافدين إليهم وسنسميهم جميعاً اللاجئون إلى بلاد الشركاسة.

إذا رجعنا إلى الوراء نلاحظ أن الأقوام التي جاءت إلى قفقاسيا كالمصريين والسوريين وغيرهم قديماً اختفت جنسياتهم واندمجوا بالأكثرية الشركسية وتلاشوا مع الزمن وتمثلوا في العناصر المحيطة بهم أي تشركسوا^(١).

وتجد أيضاً أن المجريين جاءوا إلى بلاد القبرطاي الشركسية وكانوا أصدقاء متحابين وبعد انقراض مملكة الخور في القرن العاشر للميلاد لجأت عائلات خزرية إلى الشركاسة وعاشوا بينهم بسلام، وقدم اليونانيون للتجارة ونشر الدين المسيحي فعاشوا بسلام في بلاد الشركس.

وصل العرب مبشرين بالإسلام إلى تخوم البلاد الشركسية واندمجوا مع بعض القبائل وخاصة في داغستان.

بعد انكسار التتار أثر البعض العيش مع الشركاس حتى على نطاق خاناتهم الكبار واعتبرهم الشركاسة من النبلاء ولكنهم أبعدوهم عن الرئاسة والزعامة ومن الأمراء التتار الذين عاشوا بسلام في بلاد الشركس عائلة باخجري خان التي عاشت مع القبرطاي وعائلة سعادت كيري خان وعاشت مع قبيلة الأبازه، وعائلة جوبان كيري خان التي عاشت مع الحاتقواي.

كذلك باقي من التجأ إلى الشركاسة من الأتراك بعد فشل حريهم مع الروس في القرم وحتى كثير من الروس والأرمن والجورجيين أيضاً كانوا في بلاد الشركس يعيشون بسلام، ولم يستعبدهم الشركاسة مطلقاً^(٢).

إذا عدنا إلى ذكر طبقات الشركاسة وطبقة (البشيتل) حين ذكرنا بأن قسماً منهم هم من أسرى الحروب وكما كتب بيل ١٩٤٠ عن أسرى الحرب بأن

^١ - تاريخ الفوقاز ص ١٤٨.

^٢ - تاريخ الفوقاز ص ١٤٩ - ١٧٥.

الشراكسة كانت معاملتهم جيدة، ومن فترة قريبة ذكرت الصحف عن معاملة
النيشيان الحسنة مع أسراهم في حربهم الاستقلالية الأخيرة مع الروس.

لم تذكر الأدبيات ولا كتب التاريخ أن استعبد الشركس أي أسير حرب لديهم
مما يؤكد عدم وجود عبيد عندهم أيضاً، فكانوا يتركونهم أو يتم الاحتفاظ بهم
للتبادل مع أسراهم^(١).

ليس الأمر هكذا بل حتى في حروب الشراكسة مع الروس القياصرة فقد
كانوا يطلقون بعض العيارات النارية أولاً لتبهيهم قبل الهجوم عليهم^(٢).

٥ - كلمات استعملت:

شاع استخدام بعض الكلمات والمصطلحات قبل وبعد وخلال عصر السلاطين
وقد استعملت للتقرب والتحبب والإخلاص، وليس بالمعنى الحرفي والظاهر، أو ما
يفهم منها اليوم. وسأذكر أمثلة من بعضها لتوضيح المقصود مع تفصيل أكثر
لكلمة الأولى:

أ. المملوك:

المقصود من هذه الكلمة هي المجاملة، مثلما يقول الشخص لآخر هذه الأيام،
سيدي، أستاذ، وما شابه ذلك لتوضيح ذلك لنعد إلى عهد صلاح الدين الأيوبي،
وهذا قبل عصر السلاطين موضوع الكتاب، وبغض النظر عما قال إن البطل
الأيوبي كان من العبيد، كما (قال ابن القارس: كان شادي جد صلاح الدين -
مملوك بهروز الخادم^(٣)). نجد أن كلمة مملوك استعملت في رسالة كتبها القاضي
الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بنصر حطين (كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس
إلى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها)^(٤). وكذلك القاضي
نفسه يهنئه بفتح حصن برزيه سنة ٥٨٣هـ (الحمد لله، وحاضرها الله أكبر بما بقي

١ - أساطير التاريخ والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٨.

٢ - والشركس في فجر التاريخ التاريخ ص ٦٨.

٣ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٣.

٤ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ١٢٩.

المملوك يستبطن خبر أنطاكية فقد ألقت الأرض أفلاذها..^(١) وكذلك في رسالة ملك الأرمن كاغليوس إلى الأيوبي: (مما أطلع به علوم مولانا وملكنا السلطان الناصر...)^(٢). وبالطبع لا يقصد صاحب قلعة الروم بأنه من ممالك صلاح الدين. ونجد في رسالة لأبي الهيجاء وهو تركي إلى صلاح الدين الكردي حول موضوع نصره صلاح الدين ومنع الصليبيين من أخذ القدس فيقول أبو الهيجاء: اجتمع عنده جماعة الممالك والأمراء^(٣). ولا يقصد هنا عبيداً، وكيف يكون ذلك وهم يقرون خوض المعركة مع صلاح الدين أم لا. كما نجد صلاح الدين نفسه في رسالة إلى الخليفة يكتب (المملوك يخدم الحرم الشريف باحترامه، والفناء الكريم بإعظامه، والبساط المقبل بطول استلامه... كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبار بجانبه مشتبهاً، والحقائق لديه غير متوجهة فإن طاغى الكفر القسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب ناراً)^(٤).

نجد أن صلاح الدين كتب للصالح إسماعيل بن نور الدين فقال: (أنا مملوك الصالح ما جئت إلا لأنصره وأخدمه)^(٥).

كانت كلمة المملوك تستعمل في المخاطبات للملوك والشخصيات الكبيرة في البلاد العربية ومع الملوك الأجانب فنجد فردريك الثاني يكتب للسلطان الكامل: (أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنني أكبر ملوك البحر. وقد علم البابا والملوك اهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائياً انكسرت حرمتي بينهم، هذه القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم. فإن شاء السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيادة فيكون منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر)^(٦).

^١ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ١٧٤.

^٢ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ١٨٣.

^٣ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٢٢٧.

^٤ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ١٨٩.

^٥ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٨.

^٦ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٩٩.

نجد القاضي الكاتب محي الدين بن عبد الظاهر الذي عاصر السلطان الظاهر بيبرس يورد في كتابه عن سيرة الملك الظاهر ويكرر عبارة يقصد بها نفسه مثل (وكان المملوك الأصغر شاهداً سفيراً وحضراً، ومعينة لا خيراً)^(١). وهذا بالطبع دليل الاحترام والتقدير ودليل على تواضعه أمام ولي نعمته^(٢).

تجد بعد ذلك رسالة الأشرف خليل بن قلاوون إلى صاحب اليمن ليبشره بفتح طرابلس الشام ٦٨٨هـ (المملوك يجدد خدمته ويقتضي فيها أثر والده، ويجرى في تبليغها على أجمل عوائده)^(٣). فالأشرف خليل لم يكن هو ولا أبوه السلطان تابعاً لصاحب اليمن بل كان الأخير يتودد للسلطان ويخاف منه، وإنما كانت المجاملات بين أصحاب السلطات. وتجد في الرسالة التي لم يبعثها السلطان بنفسه بل ابنه وضمناً تعني الرسالة لصاحب اليمن بأن انتبه. انتصرنا على الصليبيين ولن تعجزنا أنت ولا غيرك.

بعد عصر السلاطين وقدم العثمانيين وفي مرسوم للسلطان سليم لأهل دمشق: (فعلت عساكرنا المنصورة بهم، فربطوا الخيالة لهم الطرقات، لئلا ينهزم منهم أحد، وصاحت عليهم مماليكنا الإنكشارية والتفكجية)^(٤). ومعلوم أن الإنكشارية هو جيش صنعه العثمانيون بأخذ الأولاد من ذويهم وهم صغار وشكلوا منهم جيشاً لهم، فلا يعرفون إلا أن أبوهم السلطان وأهمهم دولة العثمانيين، وهذه الفئة لا تنطبق على الممالك، ولكنها استعملت وكذلك نجد كتابة على مسجد سليمان باشا تنص (قد بنى وعمر الجنب العالي مملوك سلطان السلاطين سليمان خان من آل عثمان، أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو أمير المصريين سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين مسجداً لوجه الله المعين طلباً لمرضاة رب العالمين ليعبدوا فيه الله وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين)^(٥).

١ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢٣ - ٣٠ - ٤٦.

٢ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢٠.

٣ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٣٠٢.

٤ - العراك بين الممالك والعثمانيين الأتراك ص ٢٩٢.

٥ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص ١٦١.

ذكر سابقاً أن قيل أن شادي جد صلاح الدين من المماليك وكذلك السلاطين في الدولة التالية البحرية والبرجية ونجد من يقول أن العثمانيين من المماليك فقد ذكر: (ورثت دولة المماليك الثلاث وهي على التوالي: المماليك البحرية، والمماليك الجركسية، والمماليك العثمانية... حكم الديار المصرية والبلاد الشامية خمسة قرون)^(١).

فيما بعد ذلك استمر استخدام الكلمة ذاتها، فقد جاء (الأمير الكبير محمد ابن أبي الذهب أحد أمراء مصر وولاتها الذين قاموا بدور خطير في سياستها فقد كان مملوكاً للأمير علي بك الكبير، ثم عينه خازن داراً له، ثم قلده الصنجدية، وألبسه الخلعة في حفلة أقيمت في القلعة، فسر بذلك محمد بك، وصار يوزع هبات ذهبية، وينشر الذهب على الفقراء فعرف بأبي الذهب، ثم عهد إليه في سنة ١١٨٥ هـ - ١٧٧١ م، بقيادة جيش كبير فتح سوريا باسم علي بك الكبير...) ^(٢) ، فكيف يكون مملوكاً عبداً وله هذا الذهب الذي يوزع على الأحرار. أما كان الأجدر له - اللهم إن صح القول بأنه عبد - أن يشتري نفسه ويعتقها؟ ومن كان يمتلكه؟ هل هو الأمير علي بك الكبير؟ وإذا كان صحيحاً فمحمد بك هو وكل ما يمتلكه لعلي بك، ألا ترى أن تلك الكلمات وما شابهها وضعت من قبل واضع جهلاً أو بقصد السوء والانتقاص من أهمية الانتصارات العظيمة التي حدثت في بلاد الشام ومصر من الأعداء والأجانب سواء التتار والأتراك والأوربيين.

أعود وأؤكد أن هذه الكلمة وما شابهها تعني الاحترام للمخاطب، ولم تكن مقصورة على طبقة الأمراء بل حتى السكان العاديين كانوا يستعملونه، فقد اشتهر أهل دمشق بلباقتهم في سلوكهم، سواء أكان ذلك فيما بينهم أم مع الغريباء، وقد تأثر كثيرون ممن أقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتمام بالآخرين، والانطباع الذي وضعه كل من ابن جببر وابن بطوطه - وهذا كان قد جاب في طول الأرض وعرضها وتقل براً وبحراً - حري بأن ينقل. فقد قال ابن جببر: مخاطبة أصل هذه

^١ - صور ومظام من عصر المماليك من المقدمة.

^٢ - اللبليل الموحز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص ١٧٥.

الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد، وبامثال الخدمة، وتعظيم الحضرة، وإذا التقى واحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عتقاء مغرب، وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائهم تهوي بينهم هويًا^(١).

ما هي حقيقة الممالك إذا؟ (فالممالك لم يتم شراؤهم من قبل الأشخاص - إن صحت كلمة الشراء عليهم - بل السلاطين دفعوا لاستقدامهم من بيت مال المسلمين^(٢)). لجعلهم جنوداً للدفاع عن بلاد المسلمين وما دفعه بيت المال لا يعني مطلقاً في الإسلام شراء عبيد أو أشخاص^(٣)، ولندكر ما كتبه الدكتور شوكت المفتي: (وهنا تعبير آخر يجب ذكره هو (المملوك) مع العلم أن الممالك لم يكونوا في حال من الأحوال أرقاء بل كانوا جنوداً يخصصون الملك أو الأمير كحرس خاص، ويخدمون مقابل رواتب وأجور، ويستخدمون أيضاً ليناھضوا غيرهم من الجنود المحاربين الأجانب كالفرس والترك، والدليل على ذلك أنهم حينما تهيأت لهم الفرص، أصبح الممالك ملوكاً واثبتوا جدارتهم في الحرية كما شهد لهم بذلك التاريخ)^(٤).

تذكر بعض الكتب بأن الممالك هم الجنود الميليشيا والذين أصبحوا طبقة عسكرية ثم طبقة حاكمة^(٥). ويذكر في التاريخ الانتصارات التي حققوها ضد الصليبيين والمغول ويرى المرحوم محمد زاهد بن الحسن الكوثري وهو عالم دين إسلامي عاش آخر أيامه في مصر وله مؤلفات بالفارسية والتركية والعديد بالعربية، وأغلبها متعلقة بالدين قال: (إن أسير الحرب لا يدل على أنه غير أصيل، بل يدل على

١ - دمشق في عصر الممالك ص ١٣٦.

٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٥٤.

٣ - الممالك ص ٨٢.

٤ - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج ١ ص ٥٧.

٥ - تاريخ مصر من عهد الممالك إلى نهاية حكم إسماعيل ص ٢٢ - ٢٣.

أنه وطني صحيح عانى كل شقاء في سبيل الدفاع عن بلاده، ويرى أن إطلاق الممالك إنما هي شتيمة لا تبيحها الشريعة الإسلامية ولا يستسيغها الخلق الكريم^(١).

ب. عبد:

استعملت بمعنى احترام للأعلى مرتبة، كما جاء في الرسالة الشفهية لقائد الجيش المغولي كيتويوقا هولاقو بعد أن خسر المعركة. في عين جالوت. (مادامت نفسه الشريفة. أي هولاقو. آمنة وسالمة فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير)^(٢).

ج. عتيق:

جاء في رسالة الأمير الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل لما قدم إلى سورية عام ٦٢٦هـ من أجل بحث موضوع القدس: (إني عتيقك، وتعلم أنني أكبر ملوك الفرنج وأنت كاتبتي بالمجيء...) ^(٣). فهل يعقل من أكبر ملوك الفرنج أن يعتبر نفسه عبداً مثلاً؟.

د. غلام:

جاء في رسالة جوابية من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين: (إن قاعدة الفرنج إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار يتبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إلي وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي)^(٤). ويتضح أن كلمة غلام التي جاءت في الرسالة لا تعني نهائياً بمعنى العبودية ولا تساوي كلمة عبد. ونجد أيضاً في رسالة

^١ - الوطن في أدب الشراكسة ص ٣٢ ومصر والشراكسة ص ٤٤ - ٤٨.

^٢ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٣٥٨.

^٣ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

^٤ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٥٣٥.

الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل، ويكتب عن نائبه (إن هو إلا أقل غلماني فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له)^(١).

هـ. أجلاب:

استعمل في عصر السلاطين وخاصة في القسم الثاني منها حسب تقسيم كتاب التاريخ وتحت اسم الدولة الجركسية أو البرجية كلمة جلب أو جلبان أو أجلاب عن أناس جاء بهم السلاطين^(٢)، لأغراض مختلفة، إلا أنهم أطلقوا هذه الكلمة على من أتى به لينضم إلى الجيش^(٣)، فجلب (إلى عرش السلطنة مقدمو الوحدات العسكرية المملوكية، الذين كانوا في ذلك الحين أصحاب النفوذ الحقيقيين،... فقد شنوا حرباً ضروساً ضد كل من المغول والإمارات الصليبية)^(٤).

الكلمة نفسها استعملت لمن جلب لأغراض غير حربية مثل جلب بعض العلماء ومن مناطق مختلفة ليزدادوا معرفة بالعلوم وخاصة الدينية فكتب الكوثري: (ها هو الظاهر برقوق، - وهو من السلاطين الشراكسة في مصر - يتفقه على الإمام أكمل الدين البابرتي، ويشارك المحدثين في رواية الصحيحين، ويجلب أمثال ابن أبي المجد من كبار المسندين من الأقطار النائية رغبة منه في إعلام سند المتعلمين بمصر بسماعهم الحديث من أصحاب الأسانيد العالية، ويفعل مثل ذلك المؤيد - وهو من سلاطين الشراكسة في مصر - حيث كان هو نفسه يروي الصحيح عن السراج البلقيني، بل ابن حجر سمع الحديث عن المؤيد هذا، وترجم له في عداد شيوخه في (المعجم المفهرس)، وقد جلب المؤيد إلى مصر العلامة شمس الدين الديري صاحب (المسائل الشريفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة). وكذلك ترى الظاهر جقمق - وهو من السلاطين الشراكسة في مصر - يسمع الصحيح من أبي الجزري، ويجلب كبار المسندين إلى مصر ليتلقى منهم المتعلمون بمصر ومروياتهم في السنة من

^١ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص ٢٤٨.

^٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٣٤.

^٣ - مصر والشراكسة ص ٣٨ - ٣٩ - ٤٠.

^٤ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٣٩.

الصحاح والمسانيد ، ويجعل القلعة المصرية مجمع هؤلاء العلماء وموضع تلقي المتعلمين لتلك الكتب من هؤلاء المسنين، تنويهاً بأمرهم وإعلاء لشأن العلم، وبهذه العناية من الملوك والأمراء كانت مصر دار حديث وفقه وأدب في القرون الثلاثة. السابع والثامن والتاسع^(١).

و. خاتمة وإيضاح:

جلب أو استخدام أناس من الشمال لم تكن بعملية بيع وشراء، فالذي يطلب قدومهم هو من نفس قوميته^(٢)، والجدير بالذكر أن من يجلبهم - التجار - غالبيتهم من غير العرب أيضاً^(٣). ولم يكن ما سموا بالتجار يشترون أناساً مثلاً أو يخطفونهم^(٤)، مما يؤكد قولنا ما رأيت الحكومات السلطانية (على تحذير الناس من انتقال مملوك عن طريق البيع إلى كاتب أو عامي - أي إلى أحد من غير المماليك - ومن كان عنده مملوك فليبعه، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً فلا يلوم إلا نفسه)^(٥). هذا علماً بأنه كان يتم استقبال القادمين بالترحاب مما يؤكد رفض كل ما قيل عن شرائهم فقد كتب أبو حامد المقدسي، في آخر كتاب دول الإسلام الشريفة (ومولانا السلطان لان يسمع بأن فلاناً وصل من جركس فيرسل إلى باب حطب لملاقاته بفرس بسرج ذهب وكينوش كاملية طرش، ويقف النائب في خدمته وكذا كل من مر عليه، بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً قبل أن يقطع قماش الأجلاب فما يرى نفسه إلا ملكاً لا مملوكاً)^(٦)، وإذا عدنا إلى المصادر التاريخية لذلك العصر نجد بأنه من كان يستقدم تلك الفئات كان يعين بلقب خواجه، وللخواجه تعني الأستاذ في ذلك العصر، وكانوا يعتبرون أفراداً مهمين في الدولة،

١ - مقالات الكورني ص ١٦٦.

٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٧ ومصر والشراسة ص ٣٧ - ٣٨ - ٤٧.

٣ - المماليك ص ٧٦.

٤ - صور ومظام من عصر المماليك ص ٧٨.

٥ - مصر في عصر دولة لمماليك البحرية ص ١٥٧ ومصر والشراسة ص ٤٠ - ٤٤.

٦ - مصر والشراسة ص ٤٨.

ويشرف عليهم أميراً عاماً^(١)، ويتم الأمر بموجب تفويض السلطان نفسه^(٢)، ويعهد إليهم بالاتصالات الدبلوماسية مما يؤكد كذلك هو قدوم السلطان برقوق - طبعاً قبل أن يكون سلطاناً وكان وقتها أميراً - طلب قدوم أخيه وأولاده ووالده أنس (أنص)^(٣)، علماً أن والده أنس مات بعد سنتين من وصوله وقد تجاوز الثمانين عاماً، وتم قدومه واستقباله باحتفال، وقبل برقوق يد والده ووضعها على رأسه^(٤)، فلا يعقل أن تكون هناك معامل إنتاج للعبيد بل كان الغرض استقدام أناس ذوي كفاءة ومعرفة سابقة بهم. فكثيراً ما نجد الأسرى والجنود هم أقرباء، وكان المرء إذا ارتاح واستقر وضعه في مصر حينما يكون ذا مكانة كان يطلب من أقربائه القدوم للعيش الرغيد كما يقال، وكما فعل السلطان برقوق حيث استقدم أقرباء آخرين غير أخيه ووالده^(٥)، وكذلك الأمر أيضاً مثل أمير الشام سيباي الذي له أعمال في الشام مثل قناة العوني جنوبي السويقة، وخان نقيب الأشراف في باب الجابية، وشرع في غرب الجابية بناء تربة له فيها، فتوفيت أمه فكانت أول من دفن فيها، مما يدل على أن استقدام الشراكسة إلى بلاد الشام ومصر لم يكن بيعاً بل باختيارهم إذ لو كان بيعاً كيف يأتي الآباء والأبناء وما شابه ذلك كما ذكرنا في موضع آخر^(٦)، والجدير بالذكر (أن هذه الطائفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها في الأهالي الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك معهم) وقد كانوا (يحرصون على التزاوج بينهم وبين أنفسهم) أي من جنسهم^(٧).

-
- ١ - نظم السلاطين المماليك في مصر ج ١ ص ١٥ - ١٦.
 - ٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٦.
 - ٣ - مصر في عصر دولة المماليك الجركسية ص ٨.
 - ٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١١ ص ١٨٢ - ١٨٣ - ٢٠٣ - ٢١٨.
 - ٥ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٣٠ - ٣٧ و المماليك ص ٢٢٠ و النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١١ ص ١٨٢ - ٢٥٥.
 - ٦ - دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص ٦٦.
 - ٧ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ص ٢٣ ومصر والشراكسة ص ٤١ - ٤٢.

وصلت في العشر الأخير من رمضان ٨٥٢ هـ أخت السلطان جقمق قادمة من بلاد الشركس، والمذكورة تزوجت يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر ٨٥٤ هـ على الأمير تتم بن عبد الرزاق المؤيدي^(١)، كما قدم يوم الأحد السابع والعشرين جمادي الآخرة ٨٥٣ هـ أخو السلطان جقمق من بلاد الشركس، وكان قدم قبل هذا التاريخ مرة سابقة في الدولة الأشرفية^(٢)، وكذلك نجد أن السلطان قايتباي جلب قانصو الأول خال الناصر محمد بن قايتباي وكان لا يعرف إلا باللسان الشركسي^(٣)، فيتضح لك أن قدوم أشخاص من بلاد الشركس كان لأغراض وحسب ما يقتضي الأمر وحسب ما يطلبه السلاطين الشراكسة أنفسهم، وليس بضاعة تعرض، وكانت هناك اتصالات بين السلاطين في مصر والشراكسة في بلادهم. وقد كان يكلف أشخاص كأداء للطريق ذوو مكانة بارزة، وليس تجاراً كما كتب بعض الكتاب عنهم فكلمة خواجه تعني في كثير من اللغات ومنها الشركسية الأستاذ ذو المعرفة بشيء ما.

استعملت كلمة استيراد أيضاً في بعض الكتابات. أما سبب استيرادهم إن صحت التسمية هو النظام الذي اتبعوه في ذلك العصر للحفاظ على عنصرهم. فقد اعتمد على استيراد الرجال الجدد في كل جيل لأخذ المناصب الأعلى في الدولة ليحل محل العائلات المملوكة السابقة، والتي برغم أنها أعطيت موقعاً... وهناك سبب للاعتقاد أن المماليك كانوا مخففين بيولوجياً في مصر وسورية، وأنهم أخفقوا في إنشاء أسر كبيرة، تستمر فترة طويلة^(٤). ولهذا السبب استقدموا النساء أيضاً للزواج حيث الشراكسة لا يتزوجون غالباً إلا منهم، وتجد الخاصة لديهم من القديم إلى الوقت الحاضر في بلادهم القفقاس وفي بلاد المهجر المختلفة. ويذكر في الكتب العديد من النساء اللاتي قدمن لبلاد الشام ومصر، فتجد السلطان جقمق

١ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ١ ص ١٨٢ - ٢٥٨.

٢ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ١ ص ٢١٣.

٣ - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص ١٠.

٤ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١٨٦ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٠١ - ٢٨٥ - ٤٣٥ - ٤٣٦ بناء دولة مصر محمد علي ص ٢٣٩.

الشركسي تزوج من بنت أمير بلاد الشركس كرتباي التي وصلت إلى مصر مع أبيها^(١)، وقبل ذلك تزوج السلطان جقمق من خوند شقراء بنت السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق^(٢). مع العلم أنهم لم يحاولوا الامتزاج بأهلها^(٣). ولكنهم شاركوا ليس بالدفاع عن مصر وبلاد الشام بل كانوا مشاركين مهمين في عملية بناء المجتمع^(٤)، ومهما قيل عنهم بأنهم هبطوا مختارين أو أسارى أو متخطفين^(٥).

٦ - كلمات بغير معانيها:

إن اللسان العربي غني بكلماته، وقد يحدث أن يستعمل العرب كلمة معناها شيء ويقصد بها شيء آخر خلال استعمالها لدى الناس عبر العصور وفي كلامهم العادي واليومي، وقد يتكلم المرء بشيء ويعني شيئاً آخر غير ما هو وارد في المعاجم العربية، أو كلمة تطلق بمعنى حسن لإخفاء حقيقة أخرى. لتوضيح ذلك نجد مثلاً كلمة صعلوك تعني الفقير الضعيف وجمعها صعاليك، وقولهم صعاليك العرب، كان يعني فقراءهم^(٦)، واستعملت لمن يقوم بعمل مشين غير رزين وقد كان يطرد من قبيلته، بينما حالياً تعني الكلمة لدى الناس الفهلوي والشاطر، وإذا قلت لآخر أنك صعلوك لا ينزعج حالياً بل قد يبتسم. كلمة استعمار أصل الكلمة جيد، وحسن بمعنى السير للأعلى والبناء، والعمران، ولكن المعنى الحالي للكلمة هي الاحتلال بالقوة لأرض الآخرين واستنفاد خيراتهم.

^١ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ١ ص ٢٢٤ و مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥٧ و دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص ٩١.

^٢ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ١ ص ٢٦٠.

^٣ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٨.

^٤ - مصر والشراسة ص ١٣٨.

^٥ - صور ومظالم من عصر المماليك ص ٣ - ٤.

^٦ - مختار الصحاح ص ٣٦٣ ومنجد الطلاب ص ٤٠٥.

استعملت قديماً كلمات مثل مفاز (بفتح الميم) أي برية طويلة قليلة الماء، ولكن في الحديث الطويل عن غزوة تبوك (واستقبل سفراً بعيداً مفازاً) سميت مفازاً تفاضلاً، كما يسمى اللديغ سليماً^(١).

كذلك كلمة الجزية التي كانت تفرض على أهل الكتاب في ديار الإسلام مقابل حمايتهم وعدم الاعتراض لهم، فهذه الكلمة قد يعتبرها الناس بمعنى المهانة مع أن الكلمة لا تدل بوزنها ولا أصل اشتقاقها على معنى من المعاني أو الاحتقار، ويذكر (أن نصارى بني تغلب قالوا لعمر نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض، يعنون الصدقة (أي الزكاة) فقال لهم عمر: هذا فرض على المسلمين. قالوا: (فرد ما شئت لهذا الاسم لا باسم الجزية. ففعل.. وفي رواية: (ضاعف عليهم الصدقة، وقال: سموها ما شئتم)^(٢).

^١ - رياض الصالحين ص ٢٨.

^٢ - الجهاد في الإسلام ص ١٣٤ - ١٣٦.